حكاياتٌ دعويّة
(١)

الصَّديقُ وقتَ الضِّيق !!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

كما تَدينُ تُدان!!

طلبتْ (ناديا) من والدتِها أن تَقُصَّ عليها قصةً من قِصصِ السابقين ، فقالتِ الأمُّ : إذا أردْتِ أن تَستمِعي إلىٰ قِصَصِ السابقينَ ، فعليكَ بوالِدكِ فهو مهتمٌّ بهذا المجالِ كثيراً... ، وهو يُدوِّنُ القصصَ التي تُعجِبُه كثيراً...

.. وانتظرتْ (ناديا) والدَها حتىٰ يعودَ من العملِ المسائيِّ ، وأثناءَ الانتظارِ دخلتْ إلىٰ غرفتِهِ... فحارتْ في أيِّ كتابٍ تَقرأُ... فجُدرانُ الغرفةِ مليئةٌ بالكتبِ.. وعلىٰ الوِساداتِ مُجلّداتٌ وكتبٌ... وعلىٰ أرض الغُرفةِ مَجلاتٌ وصُحُفٌ و..!!

.. تناولَتْ كتاباً من كتبِ المكتبةِ.. وراحَتْ تقرأُ فيه.. فوجَدتْ هذه الحكايةَ التراثيةَ الهادفةَ :

كانَ في الكوفةِ رجلٌ من أهلِ الأدبِ والظَّرْفِ ، يُعاشِرُ الناسَ ، وتأتيهِ ألطافُهم ، فيعيشُ بها .

.. ودارَ الزمنُ دورتَه ، وانقلبَ الدهرُ عليه ، فأمسكَ الناسُ عنه ، وجَفَوهُ حتىٰ اعْتكَفَ في بيتِهِ واعتَزلَ الناسَ..

وراحَ يَعملُ مع عيالِه في الغَزْلِ ونحوِ ذلك.. ، حتىٰ نَسِيَه الناسُ ، ولَزِمَهُ الفقرُ .

قال : فبينما أنا ذاتَ ليلةٍ في مَنْزِلي ، علىٰ أَسوأ حالٍ ، إذا بالبابِ يُقرَعُ بقوةٍ ، فكلّمتُ الطّارقَ من وراءِ البابِ وقلتُ : ما حاجَتُكَ؟

فقال : إنّ أخاً لكَ لا أُسَمّيهِ ، يقرأُ عليكَ

السّلامَ ، ويقولُ لك : إني رجلٌ مُسْتَتِرٌ ، ولستُ آنَسُ بكلِّ أحدٍ ، فإنْ رأيتَ أن تَصيرَ إليَّ ، لِنتحدَّثَ ليلتَنا!

.. فقلتُ في نفسي : لعلَّ حظّي أنْ يكونَ قد تَحرّكَ!

ثمّ لم أَجِدْ لي ما أَلْبَسُه ، فاشتمَلْتُ بإزارِ امرأتي ، وخَرَجْتُ...

فقدَّمَ الرجلُ إليَّ فَرَساً قوياً كان معه ، فركبْتُه ، ورَكِبَ فَرَسَه ، وانطلقْنا ، إلىٰ أَنْ أَدْخلني إلىٰ فتىً من أجلِّ الناسِ وأَجْمَلِهِم وجْهاً ، فلما رآني قامَ إليَّ وعانقَني ، ودعا بطَعامٍ فأكلْنا ، وبشَرابٍ فشَرِبْنا ، وأَخَذْنا في الحديثِ ، فما خُضْتُ في شيءٍ إلا سَبَقني إليه!

حتىٰ إذا صارَ وقتُ السَّحَر ، قال : إنْ رأيْتَ أن

لا تسألَني عن شيءٍ من أمري ، وتجعلَ هذه الزيارةَ بيني وبينك ، إذا أرسلتُ إليكَ فعلتَ ، وها هنا دراهمُ تَقَبَّلْها ، ولا تَرُدَّها ، ولا يَضيقُ بعدَها عنكَ شيءٌ...

فنهضْتُ ، فأَخْرجَ إليّ جِراباً مملوءاً دَراهِمَ ودَفَعَهُ نَحْوِي...

فقلتُ : اخْتَرْتَني علىٰ الناسِ للمُنادَمَة ، ولسِرِّكَ ، وآخذُ علىٰ ذلكَ أجْراً؟ لا حاجةَ لي في المال!

وحاولَ الرجلُ مِراراً ، فلمْ آخُذ الكيسَ ، ويعلمُ اللهُ أني أشَدُّ الناسِ حاجةً إليه...

فقدَّم إليّ الفرسَ ، فركبْتُه ، وعُدْتُ إلىٰ مَنْزلي ، فوجدتُ عيالي ينتظرون مجيئي ، ويَظُنّونَ أني سأَحملُ لهمُ الهدايا والأموالَ...

فأخبرتُهم بخَبري فلم يُعْجِبْهم كلامي... ، فَنَدِمْتُ علىٰ فِعْلي...

فمَكَثْتُ حِيناً ، لا يأتي إليَّ رسولُ الرجلِ ، إلىٰ أنْ جاءَني بعدَ مدةٍ ، فطَلَبَ مني الذهابَ إلىٰ صاحبي...

فانطلقْتُ إليه ، فلما صِرْتُ في مَجْلِسِه ، عاوَدَني بمثلِ ذلك الفِعْل ، فعاودْتُهُ بالامتناعِ ، وانصرفْتُ مُخْفِقاً ، فأقبلَتْ امرأتي عليَّ باللومِ... والتوبيخِ!!

فقلتُ لها : أنتِ طالقٌ ثلاثاً إنْ عاودني ولم آخُذْ ما يُعْطيني..

... فمكثْتُ مدةً أطولَ من الأولىٰ ، ثم جاءَني رسولُه ، فلما أردْتُ الركوبَ ، قالتْ لي امرأتي : اذْكُرْ يمينَك ، وبكاءَ بناتِكَ ، وسوءَ حالِكَ .

فَصِرْتُ إلىٰ الرجلِ ، فلما أفْضَينا إلىٰ الأكلِ ، قلتُ له : إني أجدُ عِلّةً تَمنَعُني منه ، وإنما أردتُ أن يكونَ رأيي معي...

فأقبلَ الرجُلُ نحوي ، وأنا أُحادِثُه ، إلىٰ أنْ انْبَلَجَ الفَجْرُ ، فأخرج الجِرابَ وعاودَني ، فأخذْتُه ، فقبَّلَ رأسي ، وشكرني علىٰ قَبولِ بِرِّه ، وقَدَّمَ إليّ الفَرَسَ ، فانصرفْتُ عنه ، حتىٰ انتهيتُ إلىٰ مَنزلي .

فلما رأيتُ عيالي أقبلوا نحوي ، ألقيتُ لهم الجِرابَ... فلما رأَيْنَ الدراهم سَجَدْنَ للهِ شكراً ،... وأصلَحْنا منه حالَنا ، واشترَيْنا مَرْكوباً ، وثياباً حَسَنةً ، وأثاثاً ، وضَيْعَةً تَكْفِينا غَلَّتُها...

وعندما رأىٰ الناسُ تَبَدُّلَ حالي ، أَقْبلوا عليَّ ، يُظْهِرونَ السّرورَ بما تَجدَّدَ لي ، وظنّوا أني كنتُ

غائباً في ضِيافةِ ملكٍ من الملوكِ...!

... وانقطعتْ أخبارُ الرجلِ عني... ، فلم يَعُدْ يُرسِلُ إليَّ رسولَه... ولم أَعُدْ أراه أبداً .

وذاتَ يوم ، وبينما أنا أسيرُ بالقربِ من مَسْجِدِ المدينة ، إذا بي أَسْمَعُ ضَوضاءَ عظيمةً ، ولما تَقَدَّمْتُ رأيتُ جماعةً مجتمعةً..

سألتُ : ما هذا؟

قالوا : رجلٌ من بني فلان ، كان يَقْطَعُ الطريقَ ، فطلبَه السلطانُ ، إلىٰ أن عُرِفَ خبرُه هاهنا ، فَهَجَمَ عليه ، وقد خَرَجَ علىٰ الناسِ بالسيفِ ، يَمْنَعُ نَفْسَه...

فَقَرَّبْتُ من الجَمْعِ أكثرَ ، وتأمَّلْتُ الرجلَ ، فإذا هو صاحبي بعَينِه ، وهو يُقاتِلُ العامّةَ ، والشُّرَطَ ، ويَكْشِفُ الناسَ ، فيَبْعُدون عنه ، ثم

يَتكاثرونَ عليه ويُضايقونَه .

فنزلْتُ عن فرسي ، وأقبلْتُ أَقودُه ، حتىٰ دَنَوتُ منه ، وقد انْكَشَفَ الناسُ عنه...

فقلتُ : بأبي أنت وأمي ، شأنُك والفرسَ ، النجاةَ النجاةَ... ، فاستوىٰ علىٰ ظَهْرِ الفرسِ ، وانطلقَ.. فلم يَلْحَقْ به أحدٌ..!

... فَقَبَضَ عليَّ الشُّرَطُ ، وأقبلوا عليَّ يَضْرِبونَني ، ويَشْتِمونني ، حتىٰ جاؤوا بي إلىٰ (عيسىٰ بن موسىٰ) ، وهو والي الكوفَةِ ، وكان يَعْرِفُني مِنْ قَبْلُ .

فقالوا : أيُّها الأمير! كِدْنا أنْ نَأْخُذَ الرجلَ ، فجاء هذا ، فأَعطاه فَرَساً ، نجا عليه!

فاشْتَدَّ غَضَبُ الأميرِ ، وكادَ أَنْ يُوقِعَ بي ، وأنا مُنْكِرٌ لذلك .

.. فقلتُ في نفسي : لا وسيلةَ إلىٰ التخلُّصِ من ذلك إلا أَنْ أَقولَ الصِّدْقَ للأميرِ (عيسىٰ) .

فَدَنوتُ منه ، وهَمَسْتُ في أُذُنِه ما حَدَثَ لي مَعَ الرجُلِ ، وكيف عامَلَني وَقْتَ الضِّيقِ والشِّدَّة ، وأني ما فعلتُ ذلك إلاّ لأَرُدَّ له الجَميلَ...

فتهلَّلَ وَجْهُ الأميرِ ، ثم قال لي : أَحْسَنْتَ ، لا بأسَ عَليكَ...

ثم الْتَفَتَ الأميرُ إلىٰ الناسِ وخاطَبَهم قائلاً : يا حَمْقىٰ ، هذا يُتَّهَمُ؟!

إنما لَفَظَ حافِرُ فَرسِهِ حَصاةً ، فقادَه ليُريحَه ، فغَشِيَهُ رَجُلٌ مُسْتَقْتِلٌ ، بسيفٍ ماضٍ ، قد نَكَلْتُم عنه بِأَجْمَعِكُم ، فكيف كان هو يَدْفَعُه عن فَرَسِه؟

... ثم قال : انصَرِفوا عنه.. ، ثم أَمَرَ فَخَلَّوا

سبيلي ، فَعُدْتُ إلىٰ بيتي ، وقد حَصَّلْتُ النعمةَ ، وزالتِ الشدّةُ ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

.. هذا هو الجزاء!!

... ولما دَخَلَ والدُ (ناديا) ووجدَها مُسْتَلْقيةً في غُرفَتِه.. بينَ الكتبِ والمجلّداتِ والمجلاتِ... سألَها : ما هي الحكايةُ يا بُنيّةُ؟

فحدّثَتْهُ بالقصةِ التي قرأَتْها.. ففَرِحَ الوالدُ كثيراً... وقال لها : سأَحْكي لك قصةً قصيرةً ، وهي من قِصصِ التراثِ العربيِّ :

كان الخليفةُ (المعتضدُ) يوماً جالساً في بيتٍ يُبنىٰ له ، وهو يُشاهِدُ العمالَ والصُنّاعَ ، فرأىٰ في جُمْلَتِهم عبداً أَسودَ ، تبدو عليه حَرَكاتٌ غيرُ طبيعيةٍ ، تارةً يَمْزَحُ مع هذا ، وتارةً يَصْعَدُ علىٰ السلالِمِ دَرَجَتَيْنِ دَرَجَتين ، وتارةً يُغنّي

و... ، فأَنْكرَ الخليفةُ حَركاتِ العبدِ .

فأمرَ الخليفةُ وزيرَه أن يُحْضِرَ هذا العبدَ ، فلما مَثَلَ بين يَدَيْه ، سألَه عن سببِ ذلك ، فاضطربَ حالُه ، وتَردَّد..

فقال الوزيرُ : يا أميرَ المؤمنين! قد خمّنْتُ في العبدِ تَخْميناً ما أَحْسبُه باطلاً ، إما أن يكونَ معه دنانيرُ قد ظَفِرَ بها من غيرِ وجْهِها ، أو يكونَ لصّاً يتستّرُ بالعمل!!

فأمرَ الخليفةُ أن تُخْلَعَ ثيابُ العبدِ عن جَسَدِه ، وأن يُوضَعَ في الشمسِ الحاميةِ ، وأن يُضْرَبَ بالسِّياط حتىٰ يَعْتَرِفَ...

.. وبعد ساعاتٍ قال العبدُ : يا أميرَ المؤمنين! أقولُ الحقَّ لكنْ شريطةَ أن تُعطيني الأمانَ .

فقال الخليفةُ : نعم ، إلا ما كانَ من حدٍّ من الحدودِ...

فقال العبدُ : كنتُ أعملُ في أَتونِ الآجُرِّ ـ أي المكانِ الذي يُصنعُ فيه الآجُرّ ـ منذ سنين ، فمرَّ بي رجلٌ في وسطهِ كيسٌ ، فتبعتُه وهو لا يعرف مكاني ، حتىٰ إذا ما وصلَ إلىٰ السوقِ ، أَخْرجَ من الكيسِ دنانيرَ ، فهجمتُ عليه ، وكتّفتُه ، وسَدَدْتُ فاه ، وأخذتُ الكيسَ ، ثم حملتُه علىٰ كَتِفي ، وطرحْتُه في التنّورِ ، ثم أخرجتُ ما تبقّىٰ من عِظامِه ، فألقيتُ بها في نهرِ دِجلةَ!!

... فأمر الخليفةُ (المعتضد) فأُحْضِرَتْ زوجتُه وأولادُه ، واستَفسرَ منهم عن الرجلِ ، فَتَبَيَّنَ له صِدْقَ ما قاله العبدُ الأسودُ .

فأُعيدتِ الأموالُ إلىٰ الزوجةِ والأولادِ ، وأُمِرَ

بأنْ يوضعَ العبدُ في الأتون، ليَلقىٰ جزاءَ ما فعلتْ يداه...

والحمد لله رب العالمين

* * *